المقريزي المؤرخ والاقتصادي الأبرز في تاريخ مصر

محمد محمود عبد الرحيم

باحث ماجستير اقتصاد - كلية الدراسات العليا الأفريقية جامعة القاهرة

هناك علماء صنعوا حضارة أمم بل وصنعوا حضارة للبشرية فهناك ابن حجر العسقلاني الذي ألف موسوعة لتفسير الحديث الشريف في عشرين عاماً، والمقريزي شيخ المؤرخين الذي له الفضل الأول فيما نعرفه عن كثير من تاريخ مصر الإسلامية، وابن خلدون مؤسس علم الاجتماع وغيرهم.

إن أغلب العلماء والسياسين والحكام وحتى الجنود في العصر الإسلامي لم يكونوا مصريين من الأب أو الأم أو حتى المولد إنما حصلوا على الجنسية المصرية بصورة مكتسبة كما يحدث الآن في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا من تجنيس الأجانب، فالجميع كان يعيش بدولة واحدة كبيرة سواء كانت مصر جزء من الخلافة العباسية أو الخلافة الفاطمية أو دولة المماليك، فهناك دول تصارع من أجل إثبات انتمائها لعدد من علماء القرون الوسطى، على سبيل المثال يقع ضريح العالم الشهير والأبرز في الطب ابن سينا في ايران كما وضعت صورته على فئة ٢٠ عملة الساماني الطاجيكي.

المقريزي (٧٦٤ هـ ٨٤٥ هـ) (١٣٦٤م - ١٤٤٢م)

تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي ولد وتوفي بمدينة القاهرة[١]، وهو مصري من أب مصري من "أصول شامية وبالتحديد في لبنان" وأمه مصرية ولد في حارة برجوان بقسم الجمالية – الآن – وفي هذه الحارة نشأ وتربى وتعلم، وكان المقريزي يعتز بانتسابه إلى حارته. كان للمقريزي آراء سياسية كلفته الكثير، حيث عمل على نقد فساد المماليك وابتعادهم عن الطريق الشرعي القويم واستخدامهم أساليبهم الشرهة وقصيرة النظر في الإثراء على حساب دوام الاستقرار الزراعي والتجاري.

المقريزي أبرز تلاميذ مدرسة عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ ومؤسس علم العمران؛ أي علم الاجتماع بلغتنا المعاصرة، المؤرخ المقريزي هو شيخ المؤرخين العرب والمصريين كان بمثابه مؤسسة إعلامية ومؤسسة علمية وثّقت لفترة مهمة جداً في تاريخ مصر الإسلامية، المقريزي هو مصري المولد والمنشأ والممات، بكل تأكيد في العصور الوسطى لم يكن هناك إعلام بشكله الحديث، ولم يتوافر توثيق الفيديوهات والصور؛ لكن المقريزي كان مؤسسة

[١] مقال بجريدة الحياة – لندن، ناصر الرباط أستاذ مشارك لتاريخ العمارة، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا M.I.T رابط.

متكاملة استطاعت أن توثق أحداث على كافة الأصعدة في تاريخ مصر في العصور الوسطى، فتحدث عن نظريات اقتصادية هامة وصل إليها العلماء بعده بقرون حصلوا بموجبها على جوائز نوبل فيما بعد .

يتحدث المقريزي عن مصر في كتابه الخطط المقريزية: مصر هى مسقط رأسي، وملعب أترابي ومجمع ناسي، ومغنى عشيرتي وحامتي، وموطن خاصتي وعامتي، وجوجؤي الذى ربى جناحي فى وكره، وعش مأربي فلا تهوى الأنفس غير ذكره، لا زلت مذ شذوت وآتاني ربي الفطنة والفهم، أرغب في معرفة أخبارها، وأحب الإشراف على الإغتراف من آبارها"

أهم إسهامات المقريزي العلمية والعملية

- لقب البعض المقريزي بأبي النقود[1]، حيث يُعتبر من أوائل الكتّاب الذين كتبوا في الأزمات الاقتصادية، وأول مَن تكلَّم عن أثر السياسة النقدية في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (التضخم والأسعار)، وأول مَن ربط بين السياسة النقدية والتقلبات الاقتصادية (الأزمات والمجاعات)، وخصوصاً الطاعون الأسود الذي ضرب بمصر وحصد روح ابنه .
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار الشهير بالخطط المقريزية أهم الكتب التاريخية للتاريخ الإسلامي وهو بالطبع من أهم المراجع في تاريخ مصر حيث وصف المقريزي المدن المصرية والسكان والاقتصاد والسياسة وأحوال الحكم وغير ذلك وبذلك يكون من أهم مصادر التاريخ الإسلامي إلى جانب تأليفه لعشرات الكتب الهامة في الاقتصاد والتاريخ والدين وغير ذلك .
- تولى وظيفة المحتسب في عصر السلطان برقوق حيث كان محتسبا للقاهرة والوجه البحري في رجب سنة ٨٠١ هـ/ ١٣٩٨م، وهذا العمل كان من الأعمال المهمة للغاية في ذلك الوقت التي من خلالها اطلع على أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي سطرها في كتبه .
- اهتم بدراسة وتحليل الظواهر النقدية، وكذلك ما كتبه حول ظاهرة المجاعات وإرجاعها إلى أسباب طبيعية وأسباب اجتماعية، بعضها سياسي يتمثل في فساد الإدارة، وبعضها اقتصادي يتمثل في تزايد كلف الإنتاج وزيادة المعروض النقدي .
- كان من آراء المقريزي أن المجاعات سببها بالدرجة الأولى يكمن في فساد الحكم وسوء الإدارة الاقتصادية وزيادة تكاليف الإنتاج . وكل هذه الأمور تقود بالضرورة إلى ارتفاع الأسعار للمواد الغذائية، ومع زيادة

[1] الفكر الاقتصادي في حضارتنا المقريزي نموذج، ياسمين استتنبولي، الباحثون المسلمون

كلفة الإنتاج في الزراعة، فإن المنتجين يخرجون من حلبة الإنتاج فينقص العرض ويزداد الثمن مرة ثانية ومع ازدياد الأثمان تزداد الشرائح الاجتماعية التي هي حول خط الفقر.

- عاصر المقريزي دولة المماليك البحرية ودولة المماليك البرجية، وشغل العديد من الوظائف في عصره قاضيًا وإمامًا ورجل دين واقتصاد وسياسة.
- حاول المقريزي ان يضع حلاً لمشكلة زيادة عرض النقود فطالب بأن تصك من المعادن النفيسة حتى يمكن تحديد كميتها وتقليص عرضها، نظرًا لكون عرض هذه المعادن محدوداً. ورأى ان يقتصر الصك على معدن واحد (إما الذهب أو الفضة) واستبعاد النحاس (لأنه يؤدي إلى اختفاء التداول في المعادن النفيسة) ورأى ان للفضة قيمة سلعية أخرى وثمينة غير النقود. وهذه القيمة السلعية للفضة تختلف عن قيمتها الاسمية كنقود، مما دفع مالكيها إلى صهرها واستعمالها في استخدامات أخرى.
- يُصنَّف المقريزي من بين علماء الاقتصاد نظرًا لاهتماماته المتزايدة برصد التاريخ الاقتصادي ومحاولة تفسير بعض الوقائع الاقتصادية، حيث شرح في مؤلفاته الاقتصادية؛ ككتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، تشخيص الأزمات التي حلّت بمصر وأسبابها، وكتاب المكاييل والموازين الشرعية، وكتاب شذور العقود في ذكر النقود؛ رسالة في النقود الإسلامية، ووصف الأسواق من حيث أنواعها وتاريخها ومواقعها قديمًا وحديثًا.
- برع المقريزي في علوم الدين من فقه[1] وحديث براعته في الأدب من نظم ونثر، وأبدى هواية للتاريخ، وللعمل بعلوم التنجيم والاسطرلاب. واستمرت هذه الهوايات معه طوال حياته، كما تولى وظائف الوعظ وتدريس الحديث في عدد من المساجد، كما تولى مناصب في القضاء والإدارة في مصر والشام، اشتغل بتدريس الحديث النبوي في المدرسة المؤيدية بالقاهرة والمدرستين الإقبالية والأشرفية بدمشق، كما تولى إقامة جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي بالقاهرة.

قبر المقريزي في القاهرة:

كثرت الأقاويل حول نية المحافظة – عام ١٩٩٩ – إزالة مساحات واسعة من ترب باب النصر، المواجهة لسور القاهرة الشمالي[2]، لتوسيع الطريق الرابط بين الدراسة وباب الشعرية، عبر شارع البنهاوي وامتداده بشارع جلال، وربطهما بشارع المنصورية، لتسهيل حركة المرور، وبدأت الجرافات تتحرك داخل الشارع وتقوم بتوسعته على

[1] رابط
[2] رابط

استحياء وبعد عدة أشهر، خرجت بعض الأصوات التي لم يلتفت لها أحد، كتبت مقالة هنا، وتقرير هناك، للتحذير من كارثة، ستترك أثرا في جبين القاهرة لا يمحى، وهو أن توسعة الشارع بالطريقة المعلن عنها، تعني حتما إزالة "حوش الصوفية"، والذي يحوي جثامين عدد كبير من المتصوفة والزهاد، إلى جوار ١٤ عالما من أعلام الصوفية والفقه والحديث والتفسير والتاريخ والاجتماع، تركوا بصماتهم على مر التاريخ المصري، أشهرهم على الإطلاق تقي الدين المقريزي وعبد الرحمن بن خلدون رائد علم الاجتماع! وفي شهر أبريل من عام ٢٠٠١، خرجت الكاتبة الصحفية ثناء صليحة بمقال تحذر فيه من الإقدام على هذه الجريمة التي لن يغفرها التاريخ، نهين أسلافنا وعلمائنا أمثال المقريزي وابن خلدون بهذه الطريقة، أكدت أن دراسة أثرية أجريت قبل عشر سنوات حينها على حوش الصوفية في جبانة باب النصر، كشفت أن الحوش الذي تزيد مساحته على فدانين ويقع خارج باب النصر، كان مقبرة لصوفية خانقاه سعيد السعداء والخانقاه البيبرسية، كما كان مقبرة لعلماء مصر المشاهير أمثال ابن خلدون والمقريزي ولأسباب مجهولة – ظلت الحوش خارج سجلات الآثار وبالتالي، لم يواجه مسؤولو الحي أي مساءلة قانونية عندما قرروا إزالته وهو ما دفع أثريون آخرون، للأسف كانوا خارج المناصب الرسمية، بالإضافة إلى أثريين شبان وعلماء، حتى أهالي المنطقة، للخروج والتأكيد على أن حوش الصوفية المدفون فيه المقريزي وابن خلدون يقع بتربة باب النصر

كيف يمكن تكريم المقريزي:

يمكن القول أن هناك إهمال كبير طال تكريم العلماء والرموز المصرية والتي كان لها تأثير بالغ في الأهمية وخصوصًا في القرون فهناك مقترحات:

- إنشاء نصب تذكارية بدل من المقابر الحقيقة المفقودة.
- إنشاء منح دراسية.
- إنشاء مركزًا للدراسات على اسم العالم الكبير.
- إنتاج فليم سينمائي أو وثائقي بالتعاون مع أكاديمية البحث العلمي المصرية أو مكتبة الإسكندرية.
- إقامة مكتبة الإسكندرية معرضًا أو متحفًا مصغرًا يعرض إسهامات المقريزي العلمية بصورة مبسطة؛ فمتحف المخطوطات بمكتبة الإسكندرية يتضمن العديد من المخطوطات الأصلية للمقريزي رحمه الله جدنا ابن مصر البار العالم والمفكر الكبير تقي الدين المقريزي.

لقد كان الدافع الأهم لي شخصيًا في كتابة هذا المقال ليس تسليط الضوء فقط على المقريزي أو العلماء المسلمين في العصور الوسطي، بل لأن أصحاب العلم لا يموتون وهم بيننا بعلمهم وإنجازاتهم..

إننا نبحث اليوم عن إسهامات علمية حدثت من قرون، فهل سننتظر قروناً أخرى لنرى من يهتم بدراسة هذه الظواهر أو بإسهامات علمية؟